(٢)

الطريق الصعب

عـزم رسـول الله ﷺ علـى الخـروج إلى العمـرة بعـد أن أخبر أصحابه برؤياه ، واستكثر من الخارجين معه ، فدعا إلى الخروج معه من حوله من أهل البوادي والأعراب ، ومن قـدم عليه في تلك الأيام مسلماً ، فقد أتاه بُسْرُ بن سفيان بن عمـرو الخزاعي في أواخر شـهر شـوال مـن السـنة السادسـة للـهجرة مسلماً ، فقال له رسول الله ﷺ :« يا بُسْر لا تبرح حتى تخـرج معنا ، فإنا إن شاء الله معتمرون »[١].

وخرج الرسول ﷺ من المدينة بأصحابه وهم نحو ألف وخمسـمائة ومعـه مـن أزواجـه أم سـلمة رضي الله عنها ومـن النسـاء الصحابيات أم عمارة ، وأم منيع أسماء بنت عمرو الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية ؛ ولم يكـن أحـد ممـن مـع رسـول الله ﷺ يشك في إتمام العمرة ودخول مكة للرؤيـا النبويـة ، ولكـنهم فاتهم أن الرؤيا لم يكن فيها تحديد عـام بعينـه لـدخول مكـة

---

(١) الصالحي، السابق ، ص ٥٥.

ولا للوقوف بعرفة ولا لأخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة . وكل ذلك لم يكن في هذه المرحلة !

ولما بلغ الركب ذا الحليفة ـ وهو ميقات أهل المدينة ـ أحرم النبي ﷺ وغالب أصحابه ، وأم المؤمنين أم سلمة بالعمرة ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد إلا البيت الحرام وتعظيمه ، ولم يقصد حرب قريش ولا غزو مكة المكرمة .

وفي الطريق إلى مكة بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد عزمت على منعه من دخول الحرم ، ومن أداء العمرة ، ومن الطواف بالبيت العتيق ، وأنهم قدَّموا خالد بن الوليد في مائتي فارس ، واستعانوا بمن أطاعهم من القبائل ومنهم نفر من ثقيف على رأسهم عروة بن مسعود الثقفي ، فخرجوا إلى موضع خارج مكة يسمّى «بَلْدَحْ» وضربوا بها خيامهم ، لصد رسول الله ﷺ عن دخول مكة ولو بالحرب .

وكان النبي ﷺ قد بعث رجلاً ليعرف له خبر قريش ومن معها من العرب فعاد إليه بالقرب من عُسْفان (قرية كبيرة بين مكة والمدينة) فقال له يا رسول الله إنهم عاهدوا الله ألا تدخلها عليهم أبداً وقد جعلوا على خيلهم خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني

كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله ـ تعالى ـ أو تنفرد هذه السالفة»[1] [يعني يموت ﷺ دون الحق الذي بعثه الله به] .

ثم قام ﷺ ، فشاور أصحابه في أمر قريش وما أعدته لمنعهم من دخول مكة فقال له أبو بكر رضي الله عنه : «يا رسول الله إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ونرى أن نمضي لوجهنا ، فمن صدنا عن البيت قاتلناه» ، ووافقه على ذلك أُسَيْدُ ابن حضير ـ من رؤوس الأنصار ـ فقال رسول الله ﷺ «فسيروا على اسم الله» وهي مشورة وافقت قول النبي ﷺ لعمر عندما نصحه قبل الخروج بأخذ ما يلزمه من السلاح

---

(١) رواه أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم الحديث رقم ١٩١١٧، ط بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤؛ ورواه البخاري بلفظ مختلف عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم، وقال: «يُصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه»، الحديث رقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢. وقال الحافظ ابن حجر إن هذه الرواية مرسلة لأن مروان لا صحبة له والمسور لم يحضر القصة. وقد ورد في البخاري عن عروة أنه سمع المسور ومروان يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ (الحديث ٢٧١١ و٢٧١٢)، وذلك في قصة الحديبية أيضًا. قال الحافظ: «وقد سمع المسور ومروان من جماعة من الصحابة شهدوا هذه القصة كعمر وعثمان وعلي والمغيرة وأم سلمة وسهل بن حُنيف وغيرهم ووقع في نفس هذا الحديث شيء يدل على أنه عن عمر» (فتح الباري جـ ٥ ص٣٣٣). فظاهر الحديث الإرسال وحقيقته الاتصال.

استعداداً لحرب قريش إن حاربته ، فكان جواب النبي ﷺ أنه لا يرى أخذ السلاح ؛ وأنه يريد العمرة لا الحرب! وهذه المشاورة بين النبي وأصحابه هي المشاورة الوحيدة في أمر الحديبية كله ، اللهم إلا ما كان من استجابته لرأي أم سلمة في الحلق والذبح كما سيأتي ، لأن أمر الحديبية كان مبناه الوحي من أوله إلى آخره .

وأراد النبي ﷺ أن يتجنَّب لقاء جيش المشركين فأمر أصحابه أن يسلكوا طريقاً غير الذي يؤدي إلى مواجهة خالد وخيله ، قال رواة السيرة : « كره أن يلقاه وكان بهم ـ أي بقومه ـ رحيماً »[1] فأخذ يسأل أصحابه عمن يعرف الطريق الآخر ، وكان طريقاً وعراً ذا حجارة كثيرة وشوك وشجر ملتف (!)

وتناوب على قيادة الركب في ذلك الطريق الوعر بريدة بن الحُصَيْب فحمزة بن عمرو الأسلمي ، فعمرو بن عَبْدِ نُهم الأسلمي فكان هو الذي جاز بهم . فلما خرج المسلمون من الأرض الصعبة وأفضوا إلى أرض سهلة قال رسول الله ﷺ : « قولوا : نستعفر الله ونتوب إليه » فقالوا ذلك ، فقال : « والله

---

(١) سبل الهدى والرشاد، السابق ، ص ٦٣.

إنها للحطة[1] التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها» [حطة : كلمة دعاء بمعنى اغفر لنا ذنوبنا] ثم قال رسول الله ﷺ : « لا يجوز هذه الثنية الليلة أحد إلا غُفِرَ له »[2].

وأدرك فرسان قريش ما صنعه المسلمون من سلوكهم الطريق البعيد عنهم فأسرعوا إلى مكة ليمنعوا النبي وأصحابه من دخولها .

* * *

ولم يكن الطريق الوعر الكثير الحجارة هو العقبة الوحيدة التي صادفت المسلمين قبيل الوصول إلى الحرم ، فإنهم لم يلبثوا ، حين تركوا الأرض الصعبة إلى الأرض السهلة ، أن فاجأتهم ناقة رسول الله ﷺ بالتوقف عن المسير ، وكان ذلك إرهاصًا[3] جديدًا بأن الرحلة كلها تجري بصنع الله وتتم على عينه .

* * *

---

(١) إشارة منه ﷺ إلى قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٨) .

(٢) مجمع الزوائد ، للهيثمي ، ط بيروت (د.ت) الحديث رقم ١٠١٧٧ ؛ والثَّنِيَّةُ واحدة الثنايا من السن وطريق العقبة.

(٣) الإرهاص هو الإثبات، وهو المقدمة المؤذنة بالشيء تأتي بين يديه فتدل عليه، واستعملته العرب في مقدمات المطر باعتباره خيرًا (رَ: لسان العرب، مادة رهص)